الصباح الإسلامية
09
إعداد : ياسر السيد
العدد 2534 - السنة التاسعة
الخميس غرة ذي القعدة 1437 - الموافق 4 أغسطس 2016
Thursday 4 August 2016 - No.2534 - 9th Year

أمر الله تعالى ببرها ولو كانت مشركة لما لها من فضل على أبنائها

مكانة الأم ... في الإسلام

■ التاريخ لا يعرف دينًا ولا نظامًا كرَّم المرأة باعتبارها أمًا مثلما جاء بهِ دين محمد صلى الله عليهِ وسلم

■ كانت بعض الشرائع تهمل قرابتها ولا تعيرها اهتماماً فجاء الإسلام يوصي بالأخوال والخالات كما أوصى بالأعمام والعمات

إن التاريخ لا يعرف دينًا ولا نظامًا كرَّم المرأة باعتبارها أمًا وأعلى من مكانتها مثلما جاء به دين محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي رفع من مكانة الأم في الإسلام وجعل برها من أصول الفضائل كما جعل حقها أعظم من حق الأب لما تحملته من مشاق الحمل والولادة والإرضاع والتربية وهذا ما يُقرره القرآن ويُكرره في أكثر من سورة ليثبّته في أذهان الأبناء ونفوسهم.

ومن أعظم الأدلة على مكانة الأم في الإسلام الحديث النبوي الشريف الذي يروي قصّة رجل جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) يسأله: من أحق الناس بصحابتي يا رسول الله؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أبوك).

ويروي البزّار أن رجلًا كان بالطواف حاملا أمه يطوف بها فسأل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) هل أديت حقها؟ قال: (لا ولا بزفرة واحدة) !.. أي من زفرات الطلق والوضع ونحوها.

وبر الأم يعني: إحسان عشرتها وتوقيرها وخفض الجناح لها وطاعتها في غير المعصية والتماس رضاها في كل أمر حتى الجهاد إذا كان فرض كفاية لا يجوز إلا بإذنها فإن برها ضرب من الجهاد.

ومن الأحاديث النبوية الدالة على مكانة الأم في الإسلام قصة الرجل الذي جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: يا رسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك فقال: (هل لك من أم؟) قال: نعم قال: (فالزمها فإن الجنة عند رجليها). وقد كانت بعض الشرائع تهمل قرابة الأم ولا تجعل لها اعتبارًا فجاء الإسلام يوصي بالأخوال والخالات كما أوصى بالأعمام والعمات ومن الأحاديث الدالة على ذلك أن رجلا أتى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: إني أذنبت فهل لي من توبة؟ فقال: (هل لك من أم؟) قال: لا قال: (فهل لك من خالة؟) قال: نعم قال: (فبرها).

ومن عجيب ماجاء به الإسلام أنه أمر ببر الأم حتى وإن كانت مشركة فقد سألت أسماء بنت أبي بكر النبي (صلى الله عليه وسلم) عن صلة أمها المشركة وكانت قدمت عليها فقال لها: (نعم صلي أمك).

ومن رعاية الإسلام للأمومة وحقها وعواطفها أنه جعل الأم المطلقة أحق بحضانة أولادها تقديرًا لمكانة الأم في الإسلام وأولى بهم من الأب حيث قالت امرأة يا رسول الله إن ابني هذا كان بطني له وعاء وثديي له سقاء وحجري له حواء وإن أباه طلقني وأراد أن ينتزعه مني! فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: (أنت أحق به ما لم تنكحي).

والأم التي عني بها الإسلام كل هذه العناية وقرر لها كل هذه الحقوق واجب عليها أن تحسن تربية أبنائها فتغرس فيهم الفضائل وتبغضهم في الرذائل وتعودهم على طاعة الله وتشجعهم على نصرة الحق ولا تثبطهم عن الجهاد استجابة لعاطفة الأمومة في صدرها بل تغلب نداء الحق على نداء العاطفة.

ولقد رأينا أمًا مؤمنة كالخنساء في معركة القادسية تحرض أبناءها الأربعة وتوصيهم بالإقدام والثبات في كلمات بليغة رائعة وما إن انتهت المعركة حتى نعوا إليها جميعًا فما ولولت ولا صاحت بل قالت في رضا ويقين: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم في سبيله!!

من الجوانب المتعددة التي جاء عليها الكتاب المبين و تدل على عظمته وأنه منزل من عند الله لهداية الناس أجمعين

الفرق الدلالي بين «انفجرت» و «انبجست» في القرآن الكريم

لا شك أن سمو الجانب البلاغي في القرآن الكريم غاية في الوضوح، حتى إن المتخصصين ببيان أوجه الإعجاز القرآني، اعتبروا هذا الجانب من جوانب الإعجاز المتعددة التي جاء عليها القرآن، وهي تدل على عظمته، وأنه كتاب منزل من رب العالمين؛ لهداية الناس أجمعين.

ومن أوجه الإعجاز البلاغي ما قصه علينا سبحانه من نبأ موسى عليه السلام وقومه، قال تعالى: ﴿وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ (البقرة:60)، وقوله سبحانه في موضع آخر: ﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا﴾ (الأعراف:160).

والذي نريد أن نتوقف عنده من هاتين الآيتين، قوله تعالى: ﴿فانفجرت منه﴾، وقوله سبحانه: ﴿فانبجست منه﴾، من جهة مدلول هذين اللفظين لغة، ومن جهة الفروق الدلالية بينهما، وبالتالي الوقوف على شيء من أوجه البلاغة فيهما.

تفيد معاجم العربية أن مادة (فجر) تدل على التفتح في الشيء، ومن ذلك سمي الفجر؛ لانفجار الظلمة عن الصبح. ومنه كذلك انفجار الماء: وهو تفتحه وخروجه من محبسه؛ والفَجْرَة: موضع تفتح الماء. ثم تُوسِّع في هذه المادة حتى سمي الانبعاث والتفتح في المعاصي: فجورا. وسمي الكذب فجورا. وكثر هذا الاستعمال حتى سمي كل مائل عن الحق: فاجرا، ثم خُص لفظ (الفجور) بالزنا واللواط وما أشبه ذلك من المعاصي.

أما مادة (بجس) لغة فتدل على الانشقاق، قال الخليل: «البجس: انشقاق في قُربة، أو حجر، أو أرض ينبع منه الماء، فإن لم ينبع قليس بانبجاس»؛ وعليه قالوا: السحاب يتبجس بالمطر، أي: ينشق فيخرج منه الماء. ثم توسعت العرب في دلالة هذه المادة، فقالت: رجل متبجس، أي: كثير خيره.

وقد ذكر الخليل أن مادة (بجس) لفظ عام، فيقال: انبجست عين الماء، وانبجس السحاب، وانبجس سكر النهر (ما يسد به النهر)، ونحو ذلك.

ثم إن أغلب المفسرين لم يذكروا فرقا بين هذين اللفظين، بل فسروا كلا منهما بالآخر؛ قال البغوي: «قال المفسرون: انفجرت وانبجست: بمعنى واحد». وقال الآلوسي: والظاهر استعمالهما بمعنى واحد. وجعل ابن الجوزي هذين اللفظين من الألفاظ المُبْدَلة، بمعنى أن كل واحد من اللفظين يقوم مقام الآخر. هذا ما يفيده كلامه، حيث أدرج هذين اللفظين تحت عنوان: باب في الحروف المبدلات، ومراده من هذا العنوان: ذكر الألفاظ التي يقوم بعضها مقام بعض، وهذا ما يُعرف بالترادف.

وقد ذكر الراغب الأصفهاني بهذا الصدد، أن «الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يُستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع، ولذلك قال عز وجل: ﴿فانبجست منه اثنتا عشرة عينا﴾، وقال في موضع آخر: ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾، فاستعمل حيث ضاق المخرج (العين) اللفظين، وقال تعالى: ﴿وفجرنا خلالهما نهرا﴾ (الكهف:33)، وقال: ﴿وفجرنا الأرض عيونا﴾ (القمر:12)، ولم يقل بجسنا».

ومراد الراغب هنا: أن لفظ (الانبجاس) أخص من لفظ (الانفجار)، فكل انفجار انبجاس، من غير عكس؛ فلما كان خروج الماء في آيتي البقرة والأعراف من مكان ضيق، وهو (العين) جاء باللفظين معا: ﴿فانبجست﴾، و﴿فانفجرت﴾: لاستعمال لفظ (الانبجاس) فيما يخرج من مكان ضيق، واستعمال لفظ (الانفجار) فيما يخرج من مكان ضيق وواسع معا. ولما كان خروج الماء من مكان واسع، كالنهر والبحر، جاء بلفظ (الانفجار) فحسب، كما في قوله سبحانه: ﴿وفجرنا خلالهما نهرا﴾، وقوله تعالى: ﴿وفجرنا الأرض عيونا﴾؛ لاستعمال لفظ (الانفجار) فيما يخرج من مكان واسع.

ثم إن البغوي ذكر فرقا بين اللفظين قريبا مما ذكره الراغب، فقال: «انبجست، أي: عرفت. وانفجرت، أي: سالت». وعبر عن هذا الفرق ابن عطية، فقال: «الانبجاس: أخف من الانفجار»؛ وعبر عنه الآلوسي بقوله: «الانبجاس: أول خروج الماء؛ والانفجار: اتساعه وكثرته».

وذكروا فرقا ثالثا، فقالوا: «الانبجاس خروجه من الصلب، والآخر خروجه من اللين»، يعني: أن الانبجاس يكون في شيء قاس، كالحجر والصخر؛ والانفجار يكون في شيء لين، كالأرض الرخوة.

وتأسيسا على ما تقدم من فروق لغوية بين اللفظين، ذكر بعض أهل العلم وجها بلاغيا للآية، فقال: لما كان طلب السقيا في سورة الأعراف من بني إسرائيل، ناسبه الإتيان بلفظ يدل على الابتداء، فقال جوابا لطلبهم: ﴿فانبجست﴾، الدال على ابتداء خروج الماء؛ ولما كان طلب السقيا في سورة البقرة من موسى عليه السلام غاية لطلبهم؛ لأنه واقع بعده ومرتب عليه، قال إجابة لطلبه: ﴿فانفجرت﴾، الدال على الكثرة والاتساع، فناسب الابتداءَ الابتداء، وناسبت الغايةُ الغاية.

وقريب من هذا، علل بعض أهل العلم المعاصرين اختلاف اللفظين في الآيتين، فقال: (الانفجار) أبلغ؛ لأنه يعني انصباب الماء بكثرة، أما (الانبجاس) فهو ظهور الماء، ولو كان قليلا، وهو يسبق الانفجار؛ لأنه أوله، وقد أتى به (الانفجار) في سورة البقرة؛ لأنه استجابة لاستسقاء موسى عليه السلام: ﴿وإذا استسقى موسى لقومه﴾، ولذلك أمرهم في آية البقرة بالأكل والشرب، وأتى به (الانبجاس) في سورة الأعراف؛ لأنه استجابة لطلب بني إسرائيل استسقاء موسى عليه السلام لهم: ﴿وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه﴾؛ ولذلك أمرهم بالأكل فحسب.

وقد أرجع السيوطي في «الإتقان» اختلاف اللفظين إلى سياق الآيتين، لا إلى دلالتهما اللغوية، فقال: «في البقرة: ﴿فانفجرت﴾، وفي الأعراف: ﴿فانبجست﴾؛ لأن (الانفجار) أبلغ في كثرة الماء، فناسب سياق ذكر النعم التعبير به». يقصد بذلك: أن سياق الآية في البقرة، جاء فيه ذكر النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل. وذلك قوله تعالى: ﴿وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ (البقرة:57). وقوله أيضا: ﴿فكلوا منها حيث شئتم رغدا﴾ (البقرة:58). غير أن هذا التعليل منتقض من جهة أن السياق الذي جاءت فيه آية الأعراف، فيه أيضا ذكر للنعم، قال تعالى: ﴿وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾.

بقي أن نشير هنا إلى لفتة بلاغية في الآيتين، وهي أن كلا اللفظين (الفعلين) في الآية دخل عليه حرف (الفاء). وقد توقف المفسرون عند هذه (الفاء)، وبينوا موقعها، والمراد منها، فقالوا: (الفاء) في الآيتين هي الفصيحة، سميت بذلك؛ لأنها تفصح عن فعل محذوف؛ إذ التقدير: فضرب ﴿فانفجرت﴾، فضرب ﴿فانبجست﴾؛ قال ابن جني: فاكتفى بالمسبَّب الذي هو (الانفجار) من السبب الذي هو (الضرب). وحَذْف الفعل في القرآن كثير، منه قوله سبحانه: ﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ (البقرة:196)، وتقديره: فحلق ففدية. ونحوه أيضا قوله سبحانه: ﴿أن اضرب بعصاك البحر فانفلق﴾ (الشعراء:63)، أي: فضرب فانفلق.

ختاما، فإن القول بعدم ترادف الألفاظ القرآنية، وأن كل لفظين مترادفين يحملان دلالة مشتركة، لا بد أن يكون وراءها وجه من الدلالة مغاير، أو زائد، نقول: إن القول بذلك هو الأليق بالنظم القرآني، وهو الأنسب للقول بالإعجاز البياني والبلاغي في القرآن الكريم.

طرائف من حياة الرسول وصحابته

جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد وأناخ ناقته بفنائه، فقال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لنعيمان بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه، وكان يقال له: النعيمان: لو نحرتها فأكلناها، فإنا قد قرمنا إلى اللحم (أي اشتهينا)، ويغرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمنها، فنحرها النعيمان، ثم خرج الأعرابي فرأى راحلته فصاح: واعقراه يا محمد! فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من فعل هذا؟ قالوا: النعيمان، فاتبعه يسأل عنه، فوجده في دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب رضي الله عنه قد اختفى في خندق وجعل عليه الجريد والسعف، فأشار إليه رجل ورفع صوته يقول: ما رأيته يا رسول الله، وأشار بإصبعه حيث هو، فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تغير وجهه بالسعف الذي سقط عليه، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: الذين دلوك علي يا رسول الله هم الذين أمروني، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عن وجهه ويضحك، ثم غرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم (أنظر حياة الصحابة)

وقال زيد بن أسلم: إن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلي النبي -صلي الله عليه وسلم- فقالت: إن زوجي يدعوك، قال: «ومن هو ؟ أهو الذي بعينه بياض» ؟ قالت: والله ما بعينه بياض فقال: «بلى إن بعينه بياضا» فقالت: لا والله، فقال -صلي الله عليه وسلم-: «ما من أحد إلا بعينه بياض» (أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبيدة بن سهم الفهري مع اختلاف، كما ذكر العراقي في تخريج الإحياء)، وأراد به البياض المحيط بالحدقة.

ومن الطرائف ما روي من الصحابة الكرام الذي ضحك له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخرجه الإمام أحمد عن أم سلمة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه خرج تاجرا إلى بصرى ، ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة رضي الله عنهما، وكلاهما بدري (أي شهد بدرا)، وكان سويبط على الزاد، فقال له نعمان: أطعمني! قال: حتى يجيء أبو بكر، وكان نعيمان مضحاكا مزاحا، فذهب إلي ناس جلبوا ظهرا فقال: ابتاعوا مني غلاما عربيا فارها؟ قالوا: نعم، قال: إنه ذو لسان، ولعله يقول: أنا حر، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوني لا تفسدوه علي! فقالوا: بل نبتاعه، فابتاعوه منه بعشر قلائص، فأقبل بها يسوقها، وقال: دونكم هو هذا! فقال سويبط: هو كاذب، أنا رجل حر! قالوا: قد أخبرنا خبرك، فطرحوا الحبل في رقبته، فذهبوا به فجاء أبو بكر فأخبر، فذهب هو وأصحابه إليهم، فردوا القلائص وأخذوه، ثم أخبروا النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فضحك هو وأصحابه منها حولا.